محاضرة رقم (02)

الفرق بين البلاغة والفصاحة والأسلوب

توطئة :

تتضمن هذه المحاضرة تعميقا مقارنة بالمحاضرة السابقة، حيث تتناول الفروق بين البلاغة وبين مصطلحات تشترك معها في الاستعمال أو في المجال المعرفي من مثل الفصاحة والأسلوب، فنحاول استبيان كل مصطلح على حدة، ثمّ رسم الحدود والفروق التي وضعها أهل الاختصاص بينها، ليسهل التمييز بينها بعد ذلك، ومن هذه المصطلحات **الفصاحة والأسلوب .**

أولا : مفهوم البلاغة :

كما سبق وأن أشرنا في المحاضرة السابقة تعددت تعريفات البلاغة وتنوعت مفاهيمها عند المشتغلين بها، غير أنّ هناك ما اشتركوا فيه، من أنّ الاهتمام فيها منصب على إيصال المعنى إلى ذهن السامع وفهمه، ومن تعاريف البلاغة التي أوردها أصحابهافي مصنّفاتهم نمثّل بقول الجاحظ في كتابه " البيان والتبيين " : « قال : سمعت أبا مسلم يقول : سمعت الإمام إبراهيم بن محمد يقول : يكفي من حظ البلاغة أن لا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق ولا يؤتي الناطق من سوء فهم السامع » [1]، وذلك أن يوظّف الناطق ما لديه لإيصال المعنى للسامع، وأن يبذل السامع ما لديه من انتباه وغيره ليفهم المعنى الذي يريده الناطق .

---

[1] - الجاحظ، البيان والتبيين، 1/ 87 .

وقيل في ذات المعنى أي معنى البلاغة « الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وا ٍذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان »[2]، أي أنّ الكلمة إذا خرجت بحسن تدبّر وطول تفكير وقعت في محلّها من ذهن السامع ففهمت وأيقنكنهها ومنتهى معناها، وا ٍذا خرجت مجرّد صوت من اللسان بشكل عشوائيسمعت صوتا ولكنّها لم تزد على ذلك، فلم يفهم معناها ولا مدلول استعمالها .

وقالوا أيضا في تعريف البلاغة : « قال ثمامة : قلت لجعفر بن يحي : ما البيان ؟ قال : البلاغة أن يكون الاسم يحيط بمعناك، ويجلي عن مغزاك، وتخرجه من الشركة، ولا تستعين عليه بالفكرة .والذي لابدّ له منه، أن يكون سليما من التكلّف، بعيدا من الصنعة، بريئا من التعقدّ ، غنيا عن التأويل »[3]؛ والبيان هو البلاغة عند المتقدّمين، والإحاطة بالمعنى احتوائه وتضمنوا ٍجلاء المغزى إبراز الغرض وا ٍيضاح المفهوم، وتخرجه من الشركة، أي اشتراكه مع غيره من الألفاظ في معناها، وعدم الإطالة في شرحه والتفصيل فيه، كما يجب أن يكون بعيد عن التكلّف وصناعة الكلام وزخرفه، خليا من التعقيد والغموض وتعدد وجوه التأويل .

ثانيا : مفهوم الفصاحة :

الفصاحة في اللغة مأخوذة من فَصُحَ اللبن إذا صفا وزالت عنه رغوته، وفَصُحَ الصبح إذا بان الضوء وظهر، وقالوا :فصح الصبي إذا بان منطقه و أفهم، ورجل فصيح حسن اللسان مفهم الكلام .

وقد قال الراز ي في مختاره : « رجل (فصيح) وكلام فصيح أي بليغ، ولسان فصيح أي طَلْقٌ، ويقال كلّ ناطق فصيح وما لا ينطق فهو أعجم .وقد فَصُحَ العجميّ جادت لغته

---

[2] - أنظر الحيوان، 4/ 210 نقلا عن البيان والتبيين، 1/ 83، 84 .

[3] - الجاحظ، البيان والتبيين، 1/ 106 .

حتّى لا يلحن وباب الكلّ ظَرُفَ . وتَفَصَّحَ) في كلامه وتَفَاصَحَ) تكلّف الفصاحة، وأَفْصَحَ العجميّ) إذا تكلّم العربية » [4]

أمّا في الاصطلاح فتعدّدت تعاريفها وتنوّعت، فهناك من ساوى بينها وبين البلاغة، وهناك من جعلها شرطا لها، وهناك من فصلها عنها .

قال الجاحظ في معرض ذلك :والعتّابي حين زعم أنّ كلّ من أفهمك حاجته فهو بليغ فلم يعن أنّ كلّ من أفهمنا من معاشر المولّدين والبلديين قصده ومعناه، بالكلام الملحون، والمعدول عن جهته،والمصروف عن حقّه،نأّه محكوم له بالبلاغة كيف كان، بعد أن قد فهمنا معنى كلام النبطي الذي قيل له : لما اشتريت هذه الأتان ؟ قال :أركبها وتلد لي وقد علمنا أنّ معناه كان صحيحا [.وإ]نّما عنى العتّابي إفهامك العرب حاجتك على مجاري كلام العرب الفصحاء » [5] .

وجاء في حديث الجاحظ عن الفصاحة أيضاحدّثني أبو سعيد عبد الكريم بن روح قال: أهل مكّة لمحمّد بن المُناذر الشاعر : ليست لكم معاشر أهل البصرة لغة فصيحة، إنّما الفصاحةلنا أهل مكّة . فقال ابن المناذر أمّا ألفاظنا فأحكى الألفاظ للقرآن، وأكثرها له موافقة، فضعوا القرآن بعد هذا حيث شئتم ...» [6] .

وقال العسكري : «الفصاحة هي تماما آلة البيان، فهي مقصورة على اللفظ، لأنّ الآلة مقصورة على اللفظ دون المعنى ... » [7]، وآلة البيان هي آلة النطق، وتمامها نطقها

---

[4] - الرازي، مختار الصحاح، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1967م، مادة (ف ص ح)، ص 504 .

[5] - الجاحظ، البيان والتبيين، 1/ 161، 162 .

[6] - نفسه، 1/ 19 .

[7] - العسكري، الصناعتين في الكتابة والشعر، ص 14 .

الحروف على صحّتها، فلا يشذّ منها حرف أو ينحرف عن مخرجه، فمتى ما حدث خلل في نطق أحد الحروف انتفت الفصاحة في ذلك الموضع .

وجاء عن الجبائي في الكلام الفصيح أنّه قال في ذلك إنّما يكون كذلك لجزالة اللفظ وحسن المعنى ولابدّ من اعتبار الأمرين معا لأنّه لو كان جزل اللفظ ركيك المعنى لم يعد فصيحا [8]،وزاد عبد الجبّار على كلام أستاذه : اعلم أنّ الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، إنّما تظهر في الكلام بالضمّ على طريقة مخصوصة، وهو نفسه ما ذهب إليه الجرجاني حيث نفى الفصاحة عن الألفاظ المفردة، اذ نسب الفصاحة في الكلام المركّب إلى ترتيب المعاني ولا اعتبار فيه لترتيب الألفاظ ونظمها [9] .

ثالثا : مفهوم الأسلوب :

الأسلوب في اللغة مأخوذ من الطريق أو الفن، وجمعه أساليب، وهو في الاصطلاح الطريقة التي يعبّر بها عن التفكير أو التعبير، أي تعبير بشكل لفظي يعبّر بها عن نظم الكلام، أو المعاني [10]،وجاء في لسان العرب أنّ الأسلوب هو السطر من النخيل [11]، وكونه كذلك يقتضي نظاما معيّنا، ومصطلح الأسلوب هو أقدم بكثير مما يطلق عليه في

---

[8] - أنظر القاضي عبد الجبّار، المغني في أبواب التوحيد والعدل، دراسة وتحقيق خضر محمد نبها، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1/ 197 نقلا عن مشعل سليمان حامد الخوالدة، فصاحة الكلمة في ضوء علم الأصوات الحديث، أطروحة دكتوراه، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، آب 2009م، ص 18 .

[9] - مشعل سليمان حامد الخوالدة، فصاحة الكلمة في ضوء علم الأصوات الحديث، أطروحة دكتوراه، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، آب 2009م، ص 22 .

[10] - https://mawdoo3.com/ يوم 2021/02/17 على الساعة : 09:44 صباحا

[11] - ابن منظور، لسان العرب، مادة (سلب)

العصر الحديث بالأسلوبية التي تفر ّعت عن اللسانيات، في حين أن ّ الأسلوب كان موجودا منذ زمن أرسطو وهو معروف عند البلاغيين العرب [12] .

وجاء تعريف الأسلوب عند عدد ممن اشتغلوا به أو تخصّصوا في الأسلوبية على وجوه متعددة، فعر ّفه **بوفون** Buffoon بأنّه الإنسان نفسه، وعر ّفه **فون جل** Von j بأنّه ثمرة عمل بشري، وقال فيه **بول فاليري** Pol valeri هو عدول بالقياس إلى معيار محدّد، وقال عنه **سبتزر** Spitzer أنّه انحراف أسلوبي فردي عن المعيار العام، وقال **كوهين** : الأسلوب في الشعر هو العدول عن الخطاب العام صوتا وا يقاعا وتركيبا ودلالة [13] .

فالأسلوب خلاصة تميّز فردي يخبر عن واضعه ومبدعه، ويجعله متفر ّدا عن غيره في شكل خاص به لا يشاركه فيه أحد، ولذلك كانت الأسلوبية هي دراسة للأساليب المتميّزة والمميّزة لأصحابها وفقأسس محدّدة ومعروفة عند أهل الاشتغال بها .

رابعا : رسم الحدود بين المفاهيم الثلاثة :

عنالفي العناصر الثلاثة السابقة تفصيلا لكلّ مصطلح على حدة، فعر ّفنا البلاغة وعدّدنا تعاريفها، وشرحنا الفصاحة لغة واصطلاحا، وتحدّثنا في الأسلوب عند مختلف متناوليه ودارسيه، ونحن الآن بصدد رسم الفروق أو بناء الجسور بين المصطلحات الآنفة الذكر (البلاغة، الفصاحة، والأسلوب)، وسنجعل البلاغة مصطلحا معيارا نقيس عليه المصطلحين الآخرين، لأنّها محور الحديث والدرس .

---

(12) - http://www.uobabylon.edu.iq/uobColeges/lecture يوم : 2021/02/17 على الساعة : 10:41 صباحا

(13) - نفسه .

البلاغة والفصاحة مفهومين متداخلين في مواضع شتى، ولكن هذا التداخل مختلف فيه، فهناك من يساوي بينهما ويستعملهما استعمال الترادف، وهناك من يخالف ذلك، ويجعل لكلّ منهما سببا وعلّة تختلف عن الأخرى، وسنورد من هذا وذاك أقوالا ومفاهيم .

فالجاحظ حين وقف في كتابه [14] على قوله تعالى: ﴿ **وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا** ﴾ (القصص/34) قد جمع البلاغة والفصاحة في مفهوم واحد، لأنّ المقصود من ذلك الإفصاح بالحجة والمبالغة في وضوح الدلالة؛ لتكون الأعناق إليه أميل، والعقول عنه أفهم، والنفوس إليه أسرع، ويضيف في ذات المنحى ممعنا في توصيل المعاني وا يضاحها قوله في البلاغة : «لا يكون الكلام يستحقّ اسم البلاغة، حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك ... » [15] .

وزاد في جمع البلاغة والفصاحة أن قال : « ومن أجل الحاجة إلى حسن البيان، وا عطاء الحروفحقّها من الفصاحة رام أبو حذيفة إسقاط الراء من كلامه، وا خراجها من حروف منطقه ... » [16]، وأبو حذيفة هو واصل بن عطاء أستاذ الجاحظ وذكر أنّه كان ألثغا فاحش اللثغ، لا ينطق الراء على صحّتها، فحاول وكابد، وتكلّف التعب من أجل إخراجها من حروف كلامهليصحّ ويفهم .

وكان الخلط أو الجمع بين مفهومي البلاغة والفصاحة في معنى واحد مرحلة أولى من ورود لفظ الفصاحة في مصنفات علماء البلاغة، غير أنّه ما لبث أن ظهرت بعض الملامح ممّا يميّز بين المصطلحين بعد ذلك، وقد بدأ التمييز مع القرن الرابع الهجري على يد العسكري في كتابه الصناعتين على الرغم من أنّه مزج بين المصطلحين في بداية

---

[14] - أنظر : الجاحظ، البيان والتبيين، 07/1 .

[15] - نفسه، 1/ 115 .

[16] - نفسه، 1/ 15 .

الكتاب، حيث يقول في الأول : «وإذا كان الأمر على هذا (يقصد الرأي الذي يقول بالإبانة في معنى الفصاحة)، فالفصاحةوالبلاغة ترجعان إلى معنى واحد، وإن اختلف أصلاهما، لأنّ كلّ واحد منهما إنّما هو الإبانة عن المعنى، والإظهار له ... » [17]، فهما مشتركان في الاصطلاح رغم اختلافهما في معناهما اللغوي .

بعدها يعود العسكري في رأيه الثاني إلى الإقرار باختلاف المعنيين من حيث الاصطلاح في قوله : «فعلى هذا تكون الفصاحة والبلاغة مختلفين، وذلك أنّ الفصاحة تمام آلة البيان، فهي تتعلّق باللفظ، لأنّ الآلة تتعلّق باللفظ دون المعنى، والبلاغة إنّما هي إنهاء المعنى إلى القلب، فكأنّها مقصورة على المعنى ... » [18] .

فوّق الخفاجي بين البلاغة والفصاحة في كتابه " **سر الفصاحة وسحر البراعة** " في قوله : «والفرق بين الفصاحة والبلاغة، أنّ الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ، والبلاغة لا تكون إلا وصفا للألفاظ مع المعاني، لا يقال في كلمة واحدة لا تدلّ على معنى يفضل عنمثلها بليغة، وإن قيل فيها فصيحة . وكل كلام بليغ فصيح، وليس كل فصيح بليغا، كالذي يقع فيه الإسهاب في غير موضعه » [19]ويبدو أنّ الخفّاجي في قوله هذا لم يفرّق بين المصطلحين تفريقا مطلقا، بل فرّق من جانب ووصل من جانب آخر .

ونجد الجرجاني ينتحي نحوا متفردا لا فكرته ولكن في تطبيقه نظرية قائمة بذاتها، فهو يرى أنّ الهدف من الألفاظ يرتبط ارتباطا وثيقا بإيصال المعنى إلى أفهام الناس، وهي خدم وتبَع للمعاني في مواقعها [20]، لذلك فهو ينفي الفصاحة عن الألفاظ من حيث هي ألفاظ، أو

---

[17] - العسكري، الصناعتين، ص 13 .

[18] - نفسه، ص 7 .

[19] - الخفاجي، سر الفصاحة وسحر البراعة، ص 53 .

[20] - الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 56، 57 .

نطق حروف، وينسبها إلى النظم، الذي هو ضم الكلم بعضه إلى بعض، وتعلّقه بعضه ببعض، فتكون الفصاحة وصفا يجب للكلام من أجل مزية اكتسبها من المعنى، لا من اللفظ مجر ّدا عن المعنى، ولا تكون اللفظة فصيحة إلاّ باعتبار مكانها من النظم، وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لجاراتها [21] . فالألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجر ّدة، ولا من حيث هي كلمة مفردة، وا ِن ّ الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها، في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، وما أشبه ذلك مم ّا لا تعلّق له بصريح اللفظ [22] .

فالجرجاني على ذلك لم يفر ّق بين الفصاحة، والبلاغة، والبيان، والبراعة . فهي في نظره « ألفاظ متشابهة، ولا معنى غير وصف الكلام بحسن الدلالة وتمامها فيما له كانت دلالة، ثم ّ تبر ّجها في صورة أبهى وأزين، وآنق وأعجب، وأحق ّ بأن تستولي على هوى النفس، وتنال الحظ الأوفر من ميل القلوب » [23]وهي راجعة جميعها، إلى المعاني، وا ِلى ما يدل ّ عليه بالألفاظ دون الألفاظ أنفسها .

وأم ّا العلاقة بين الأسلوب والبلاغة، فالأسلوب موضوع منها، ومضمون لعلم من علومها، هو علم المعاني، لأن ّه دراسة لأحوال التركيب العربي، في ركنيه المسند والمسند إليه، والخبر والإنشاء .

---

[21] - الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 51 .

[22] - نفسه، ص 52 .

[23] - نفسه، ص 50 .